دراسة اثرية لزاوية لالة سيتي
دراسة اثرية معمارية

د. نبيلة حساني*

تمهيد:

تعتبر الولية الصالحة "لالة سيتي" من أهم الشخصيات التراثية لمدينة تلمسان، مما دعاني إلى الاهتمام بالبحث الميداني عن مدفنها ومنبتها، وعن كل أمر ... يمكن أن يستحضر ذكراها.

إن من يتفقد الولية لالة سيتي، سيلاحظ كيف استطاعت الذاكرة الشعبية أن تخلد اسمها من خلال تقبيب الضريح، ودفن المحبين لها بجوارها في الروضة، ومن خلال أنواع الآثار المادية الأخرى كالحي السكني التي رأت فيه الحياة فيها بالعباد وكذا أنواع المخزونات الشفوية كالكرامات والاعتقادات، والشعر الشعبي، والمثل الشعبي.

تقع زاوية لالة سيتي في مدينة تلمسان في الإقليم الغربي من أرض الجزائر ،وبالضبط بسفح جبل يحفظها من الجنوب عروسا فوق المنصة. وعرف الجبل باسمها وصار أحد أربع سلاسل جبال تلمسان[1]، وهي سلسلة جبال لالة سيتي التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها ١٣٠٦م، ومن هضبة لالة سيتي هذه تنبع عين غزيرة المياه تدعى"الفوارة" كان عليها مدار شرب أهل المدينة فيما مضى، وقد ذكرها الشاعر التلمساني أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي.[2]

وأقصد بيوم ثالث فوارة وبعذب منهلها المبارك فأنهل
تجري في در لجين سائل أحلى وأعذب من رحيق سلسل
وأشرف على الشرف الذي بإزائها لترى تلمسان العلية من عل.

كما انبهر مؤرخ الدولة الزيانية يحيى بن خلدون[3] بطبيعة هضبة لالة سيتي فقال:" اقتعدت بسفح جبل ودون رأسه ببسيط أطول من شرق إلى غرب عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين تطل منه على فحص أفيح معد للفلاحة" .

فمن تكون صاحبة هذه الزاوية؟.

هي الولية الصالحة دفينة الهضبة الجنوبية المطلة على تلمسان، وكانت على درجة كبيرة من الزهد والتقشف، والعبادة والورع، وكان قوتها من غزل ونسيج يديها،

---

*د. نبيلة حساني ، جامعة الجزائر.

[1] الحاج محمد بن رمضان شاوش : باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥، الجزائر. ص،٣٣.

[2] يحيى بن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ١٩٠٣، الجزائر ، ج١، ص٩.

[3] نفسه ، ج١،ص٩.

وكانت أحيانا تنقطع عن مخالطة الناس ورؤيتهم في شهور رجب شعبان ورمضان، وكثيرا ما تجلس مع الناس وتحثهم على فعل الخير والأمور الفقهية الأخرى، وتنبههم إلى ما ينتفعون به في آخرتهم، وتنبههم إلى مابنتفعون به في آخرتهم.

وكان لباسها عبارة عن من الصوف، وتصنع على رأسها طرفا من تليس معقودا تحت ذقنها، وشيب رأسها يبدو على جبينها. وكانت تنفرد هذه الولية بكفالة النساء وبالإشراف على تلمسان، ويعجب التلمسانيين نرداد هذه الكلمة تخليدا لاسمها: "لالة سيتي الراقبة على تلمسان"[٤].

لا نعرف تاريخ ولادتها ولا تاريخ موتها، فلم تبق شواهد على قبرها....، ولكن الذاكرة الشعبية تحدثنا بأنها عاشت في عصر الولي الصالح أبي مدين شعيب دفين العباد (ت ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م) وأنها أطعمته وأكرمته في كوخها .

أرادت الذاكرة الشعبية أن تذكرنا بالولية " لالة سيتي" فعينت لها ضريحا وبنيت لها قبة، وسيجت روضتها، هذا وقبل التفصيل في دراستنا الوصفية من الضروري ضبط بعض المفاهيم كالضريح مثلا ، والقبة والروضة .

فالضريح هو القبر الذي يشق لدفن الميت، ويعرف بشاهدتين عند التلمسانيين زجنابتين. والقبة في نظر المهندسي المعماريين، السقف المقعر النصف كروي الذي يمكن مشاهدته فوق السطوح ، وهي في عرف الناس ورجال الدين، القاعة التي يعلوها سقف من هذا الشكل ، والتي يوجد بداخلها ضريح لولي أو أكثر.

أما الروضة، فهي القطعة من التراب التي يدفن بها الأموات الذين تربط فيما بينهم قرابة عائلية واحدة ، أو تجمعهم علاقة روحية أو اجتماعية بأحد المدفونين بها . وهي عادة مألوفة عند الكثير من التلمسانيين.

أما عن تفاصيل هذه الزاوية فهي كالتالي:

أولا- القبة: تشكل القبة الموضوع المركزي من الزاوية ولقد تحدد على أساسها الضريح، وهي في منظرها الهندسي الخارجي عبارة عن مكعب تقدر مساحة قاعدته بحوالي١٨م٢. يعلوه سقف قرميدي على شكل هرم منتظم رباعي الأضلاع وظيفته تغطية القبة وحمايتها من العوامل الخارجية ، طول ضلع القاعدة المربعة للهرم سبعة أمتار . وتنتهي قمة الهرم القرميدي المغطى بالقرميد الأحمر الأجوري بقضيب معدني تعلوه رمانة وهلال نحاسيان تهشما مع مرور الزمان وتحت تأثير العوامل المناخية وانعدام الصيانة .

---

[٤] أخذت المعلومات من طرف السيدة الحاجة "فاطمة العلالي مقدمة سيدي العباد بنت الغوتي بن علال العبادي لزاوية سيدي بومدين بتلمسان.

ولاستكشاف ما بداخلها ، تلج في ضريح الولية بواسطة مدخل مقوس ، ويقدر عرضه بـــ١م ، وارتفاعه ١٧٣م ، وأما قوسه ، فمن نوع حذوة الفرس، وهو غير كامل المعالم (قوس نصف دائري عادي ، وخال من الزخارف.

وعلى أرضية القبة يوجد ضريح الولية لالة سيتي بشكل بسيط، به شاهد قبر عبارة عن لوحة مسطحة الشكل من الحجر الرملي ، مزين بقوس دائرية مفصصة يبلغ قطرها ٢٩سم وبتشكيلية زخرفية نباتية تشغل الأركان المحصورة بين القوس والاطار نقش على وجه الشاهد كتابة شاهديه بخط مغربي، تشغل الكتابة مساحة الدئرة ،وتبدو غير واضحة . بلغ ارتفاع صواعدها الطويلة(٠،٥ سم) وعرضها (١،٥سم) والمنخفضة بلغ ارتفاعها(١،٥سم).

تشير الكتابة إلى اسم المتوفي وهي امرأة وتكون كتابة الشاهد من النص الآتي:

ـــــ الحمد لله/

ـــــ هذا قبر .....

ـــــ الولية الصالحة الشريعة أمة الله لالة سيتي.

ـــــ توفيت عا....

ومحاط بقبر الولية حاجزين على جانبي القبر ارتفاعه١٨سم وبها أقواس صغيرة فعلى اليمين ١٢قوس وعلى اليسار ٥أقواس في الوسط ، ويبدو أنها كسرت من الجوانب الأخرى بفعل الإهمال وعدم المحافظة على التراث .

أما جدران القبة فإن كل واحد داخل إطار مستطيل يمتد من الأسفل إلى الأعلى، طوله ٣،٨٥م وعرضه٢،٨٥م، وينتج عنه عقد من النوع المنكسر المتعدي باعتماد طبلة تصله بعضادته.

وداخل العقد الشمالي الغربي، يمكن أن نلاحظ ، من الأسفل إلى الأعلى طاقة للتهوية وهي خالية من الزخرفة وبسيطة .

هذا ، ويقابل غرفة الضريح مدخل صغير به محراب رعي فيه القاعدة الوسطية أو المحورية ، وهو مجوف ذو شكل نصف دائري خالي من الزخرفة ، شاع استعماله في المغرب الإسلامي أما بالنسبة لمقاساته ، فارتفاعه٢،١٠م، وعرضه ٠،٨٠م ، وعمقه ٠،٦٥م يعلوه عقد نصف دائري.

ثم هناك غرفتان ، بسيطتان تيس بهما مايلفت الانتباه، وليس لهما نوافذ، وربما واحدة غرفة الضيافة وأخرى غرفة خاصة لمقدمة الزاوية .

ثانيا : الروضة: إن هذه الروضة تسكنها نفوس مطمئنة في أضرحة ما يزال بعضها قائما بشاهدتين تحملان من الحروف والزخرفة ما يدل على هوية المدفون ومكانته الاجتماعية والعلمية .

ومما يلاحظ أن دفن الناس بالروضة العارية أجبر المكلفين بالدفن على استغلال أصغر بقعة فارغة قبل أن تتعدى أنظارهم إلى الدفن على رفات أموات سابقين، ولهذا،

شقت بقاع بعض الأصرخة في اتجاهات عشوائية ، وهو أمر صار يزعج الزوار في سيرهم داخل التراب المكشوف هذا، ولقد صعب علينا إحصاء الأصرخة في الروضة والذي يتعدى حوالي ٣٠٠ ضريح، حوالي ٧٣اسما عائليا تشهد على وجودها الشواهد، وهي أحجار بعضها من مادة تافزة، وبعضها الآخرمصنوع من مادة القرانيطو أو من مادة الرخام، وهذه الشواهد تختلف فيما بينها في الصورة والمظهر والدعاء .

هذا ما تركته الذاكرة الشعبية من إمارات عينية تثبت بها ذكر لالة سيتي في مستوى الروضة.

ويحيط بالروضة سور به في الأعلى أقواس متشابهة ومتناسقة، ليس بها زخرفة ويبدو أنها بنيت بعد الاستقلال .

الخاتمة:

ولهذا، فذاكرة الشخص تذهب بذهابه، وتذهب الذاكرة الجماعية بذهاب الجماعة. ولكن الذاكرة الشعبية تبقى مهما ذهبت الأفراد والجماعات.

إن الذاكرة الشعبية تتحدى الزمان وتتخطى الأغراض الفردية والمقاصد السياسية بفضل أطر اجتماعية ما تزال ثابتة كالزاوية وما فيها، وعدد من العائلات الحافظة على ذكرها وتراثها، وما يتناقل عنه من خوارق ومعتقدات ومن شعر ومثل شعبيين.